

العلمنة على حساب الطائفية!

بقلم مواطن حر

من تابع الأخبار هذا الأسبوع، يتفاجأ لما رآه بمحيط ساحة النجمة أكثر مما يتفاجأ لما كان يحصل في داخلها. فما حصل في مجلس النواب ليس إلا نوع من العردة السياسية التي اعتاد المواطن اللبناني المسكين أن يسمعها من قبل من ائتمنهم على مصير بلاده، وبالتالي على مصيره ومستقبله. أما ما يدهش فليس المظاهرة بحد ذاتها، بقدر التألف الشعبي، الطالب بالتحديد، الذي كانت تتألف منه أفواج المتظاهرين أصحاب الحق.

فلنقلها بعينية، شهادة حق تجاه طلابنا الذين تعرضت لهم العناصر المسلحة على مشارف مجلس نوابهم، أنهم أثبتوا لدولتهم بكل من فيها من "مسؤولين" (هذا إذا صح الوصف) أنها حكومة للكذب والهرطقة والنفاق والمكاسب شخصية. يطل علينا الوزير السنيورة (مع تحفظي لكلمة وزير) من على المنبر وهو يدافع عن أساليبه بالنهب ويقول للسيد نبيه بري أنه ليس عنده مانع أن يقاطعه النائب نسيب لحود، "فنحن في بلد ديمقراطي، يحترم حرية الرأي..."، على حد ما قال. ألا يخجل السنيورة من نفسه وهو ينطق بهذا الكلام، في حين أن الشباب خارج المبنى الموجود هو فيه وعلى بعد أمتار منه يُستهدفون بأعقاب البنادق؟ عربدوا، عربدوا ما شئتم، فيا ظالم لك يوم.

على كل حال، أثبت شبابنا أن العيش المشترك موجود وبأحسن حالاته ولا شائبة عليه. فلأول مرة نرى اليمين واليسار بكل طوائفهم في الخندق الواحد، خندق الدفاع عن الحرية والديمقراطية الحقيقية، متعالين على ما رسخه في رؤوسهم زعماءنا الإقطاعيين من مبادئ طائفية تقسيمية لا إفادة فيها ولا منفعة إلا لمن هم داخل المجلس، هؤلاء الذين لا ينفكون يلوكون كلام الوطنية من أظرف ما يكون في حين أنهم كالقبور المكلسة، نواياهم شيطانية سوداء.

لا يختلف اثنان على أن التنوع المذهبي في لبنان ملفت للنظر نسبة إلى حجمه السكاني المنخفض، ولا عجب أن تدور الحرب في بلدنا باستغلال هذا العنصر المميز والذي، بنظري، يجب أن يكون مدعاة فخر ومثال، على الأقل بعد ما حصل هذا الأسبوع. قالوا لنا أن العلمنة مشروع طويل وشبه مستحيل. حسنا، ولكن ما الذي يمنعنا من أن نعلمن فكرنا أولاً ونبدأ بالتعامل مع بعضنا البعض انطلاقاً من مبدأ الاحترام للآخر دون العودة إلى الدين؟ فالدين مسألة خاصة تعني الفرد أو فئة من المجتمع وليس الوطن بكامله، مع الأمل أن لا يؤخذ كلامي كملحد. وان كانت أدياننا سماوية، مرجعيتها الله، علينا أن نعي أولاً أنه ما دعانا الله يوماً للقتل والتقاتل من أجله بقدر ما دعانا إلى المحبة والتسامح. ولكن المشكلة تكمن بالتحالف السياسي الطائفي بين رجال السياسة والمرجعيات الدينية ما أدى إلى صدامات ما كان لها وجود في الأساس لولا المصالح الخاصة لدى الزعماء.

فبات كل من يدعو إلى العلمنة والعيش المشترك الحقيقي ينعى بالملحد؟ والمشردم. كفانا هرطقة أرجوكم، فلبنان للبنانيين وليس لفئات منهم كما يفكر البعض أو يسعى إليه البعض الآخر. وإذا أردنا البدء ببناء مستقبل واع، مزدهر، يليق بنا كشعب خلفه ٦٠٠٠ سنة من الحضارة، علينا أن نبدأ بعلمنة فكرنا في المجتمع على حساب الطائفية، وليس على حساب ديننا كأفراد بالعلاقة بيننا وبين الله، متمثلين بشبابنا وما قاموا به هذا الأسبوع من تصرف واع تجاه الوطن ومستقبلهم.

بيروت في ٢٠٠٢/٢/١٠